

صورة المجتمع المكي في كتابات الرحّالة

في النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري

د. عبد اللطيف محمد الصبّاغ

مقدمة:

شهدت مكة المكرمة خلال النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري - أواخر القرن التاسع عشر الميلادي وأوائل القرن العشرين - تحولات سياسية عظيمة كان لها، بلا شك، كبير الأثر في الحياة الاجتماعية في بلد الله الحرام، تمثلت هذه التحولات في إخضاع مكة للحكم العثماني مرة ثانية، بعد إقصاء الدولة السعودية عن الميدان، ثم حكمها الشريف حسين باسم الدولة العثمانية، وما لبث أن استقل بها، وأخيراً استقر بها المقام في أحضان آل سعود مرة أخرى.

وهذه المحاولة تسعى للبحث في أثر هذه التحولات على الحياة الاجتماعية في تلك البقعة المباركة. واعتمدت في رسم صورة المجتمع المكي على بعض ما اشتملت عليه كتابات الرحّالة، الذين زاروا مكة في الفترة المذكورة، متعلقاً بمظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية. وفي مقدمة هؤلاء المستشرق الهولندي هورخرونيه، والضابط الروسي دولتشين، والياباني تاكيشي سوزوكي، وعدد من العرب المسلمين منهم الببتوني، وإبراهيم رفعت، وهيكل، والراعي.

وتدور الدراسة حول خمسة محاور أساسية يسبقها تمهيد؛ يقدم المحور الأول طبقات المجتمع المكي وأنشطتهم، ويعرض المحور الثاني صورة الأسرة والعادات والتقاليد السائدة، ويبين المحور الثالث الاحتفالات بالأعياد والمولد، ويلقي المحور الرابع الضوء على الأمراض الاجتماعية، أما المحور الخامس فعن المؤسسات الاجتماعية والترفيهية.

التمهيد :

تعتمد هذه الدراسة على كتابات الرّحّالة، ومن ثَمَّ تستمد المعلومات الواردة بعض أهميتها من مكانة هؤلاء الرّحّالة، وطبيعة رحلاتهم، وفترة بقائهم في مكة، لذا كان لزاماً علينا أن نُعرّف بهؤلاء الرّحّالة في تمهيد مختصر، كما نُضَمِّن التمهيد صورة العمران في مكة إبان فترة الدراسة، باعتباره مظهراً لحركة المجتمع.

أولاً: أشهر الرّحّالة الذين زاروا مكة في فترة الدراسة :

لقد زار مكة المكرمة في النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري عدد لا بأس به من الرّحّالة العرب والأجانب منهم من اقتصر في كتابته على مناسك الحج والعمرة، ومنهم من سجل كل ما وقعت عليه عيناه، والفئة الأخيرة هي المعنية بالدراسة هنا، ومن هؤلاء:

* كريستيان سنوك هورخرونيه

مستشرق هولندي زار جدة ومكة في رحلة استمرت عاماً كاملاً ١٣٠١-١٣٠٢هـ / ١٨٨٤-١٨٨٥م. ولد هورخرونيه في ٨ فبراير ١٨٥٧م. كان علمانياً، أتقن اللغة العربية، وحصل عام ١٨٨٠ على الدكتوراه في الآداب السامية في موضوع "الحج عند المسلمين وأهميته في الدين الإسلامي" وعُيّن مدرساً في كلية تدريب الموظفين لجزر الهند الشرقية بجامعة ليدن، ومنها حصل على إجازة دراسية للسفر إلى شبه الجزيرة العربية، فنزل جدة ومكث بها ستة أشهر تعلم خلالها اللهجة المحلية. ثم دخل مكة باسم مستعار هو (عبد الغفار)، وبقي بها ستة أشهر^(١) ورصد هورخرونيه خصائص المجتمع المكي وعاداته وتقاليده رسداً دقيقاً، في الجزء الثاني من كتابه.

* عبد العزيز دولتشين

ضابط روسي مسلم، ولد في ٢٤ يونيو ١٨٦١، تخرج في مدرسة الإمبراطور بافل العسكرية ببطرسبرج، أتقن عدة لغات منها العربية والفارسية والتركية والإنجليزية والفرنسية. اختارته هيئة الأركان العامة للجيش الروسي لأداء فريضة الحج عام ١٨٩٨م / ١٣١٥هـ، وبيان مدى خطورة الحج على مصالح روسيا السياسية والعسكرية في الشرق. وكانت روسيا تعتبر الحج وسيلة لتسريب أفكار الجامعة الإسلامية إلى ممتلكاتها الإسلامية. (٢) كما خشيت روسيا من التقارب العثماني الألماني على مصالحها في المنطقة، فأرسلت البارون إدوارد نولده إلى وسط شبه الجزيرة العربية ، لدراسة الأوضاع هناك عام ١٨٩٣م. (٣) ومن ثم جاءت رحلة دولتشين لإكمال الصورة عن المنطقة أمام القيادة الروسية.

لبي دولتشين الدعوة وأدى مهمته بتوازن بين الواجب الديني والمهمة القومية، وأتاحت له لغاته المتعددة الاستفادة من عدة مصادر، فضلاً عن ملاحظاته ومراقباته الشخصية، فقدم معلومات مفصلة في تقريره عن الحج وشعائره، والوضع الاجتماعي والاقتصادي والصحي في المدينتين المقدستين. (٤)

* إبراهيم رفعت

ولد بمدينة أسيوط ١٢٧٣هـ، تخرج في مدرسة الفرسان الحربية عام ١٢٩٤هـ، ثم رقي في المناصب العسكرية حتى أصبح ياوراً للخديوي (٥) عام ١٨٩٩م، وتم اختياره قائداً لحرس المحمل المصري عام ١٣١٨هـ / ١٩٠١م، ثم اختير أميراً للحج أعوام ١٣٢٠ و ١٣٢١ و ١٣٢٥هـ، فسجل كل ما رآه في رحلاته الخمس. (٦) وقد مكنه منصبه الرسمي من الوصول إلى دقائق الأمور، غير أنه لم يركز على الحياة الاجتماعية، وانصرف إلى وصف الحالة الأمنية والدينية.

* محمد لبيب البتنوني

مصري من رجال الإدارة، اختاره الخديوي عباس حلمي الثاني مرافقاً له في رحلة الحج عام ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م، وبعد العودة كلفه بوضع كتاب عن الرحلة،

فوضع الكتاب برؤية رحّالة مثقف، أتاحت له صفته الرسمية الاطلاع على ما لم يتح لغيره، فسجل كل ما وقعت عليه عيناه، من جغرافيا وعمران. وزود الكتاب برؤية تاريخية منحازة ضد الدعوة السلفية (الوهايية)^(٧) وذيله بخرائط توضيحية مهمة.^(٨) والرحلة تقدم رؤية مصرية شبه رسمية للأوضاع في الحجاز.

* مصطفى محمد الراعي

مثقف مصري قام بأداء فريضة الحج عام ١٣٤٩هـ / ١٩٣١م. ورصد الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لأهالي مكة والمدينة، وقدم رؤية نقدية لهذه الأوضاع، أظهر خلالها إعجابه بالروح الدينية السائدة في ظل الحكم السعودي، ولكنه حمل على هدم المزارات.^(٩)

بالإضافة إلى الرحلات السابقة، فقد استعنت بعدد آخر من الرحلات تأتي في المرتبة الثانية، لأنها لم تكن على الدرجة ذاتها من الأهمية، أو أنها جاءت بعد الفترة الزمنية المحددة للبحث مباشرة، ومن ثمّ فهي تلقي بمزيد من الضوء على صورة المجتمع المكي في العهد السعودي، ومنها على سبيل المثال رحلة الياباني سوزوكي (محمد صالح)^(١٠) ورحلة محمد حسين هيكل^(١١) ورحلة عباس متولي حمادة،^(١٢) ورحلة شهبندر^(١٣) ورحلة محي الدين رضا،^(١٤) ورحلة غريب الهاشمي^(١٥) وغيرهم.

ثانياً: صورة العمران في مكة خلال فترة الدراسة

تمتد منازل مكة المكرمة من الشمال إلى الجنوب آنذاك في وادٍ بطول نحو ثلاثة كيلو مترات، وبعرض يقرب من نصف ذلك، ويأتي الحيز العمراني محصوراً بين سلسلتين من الجبال تكادان تتصلان عند أبوابه، مشكلة حماية طبيعية له. وتغطي البيوت كل سفوح الجبال من ناحية الحرم، ثم تتدرج إلى قلب الوادي، وقد بلغ تعداد مكة في عام ١٣٢٧هـ نحو سبعة آلاف بيت، يحتشد فيها زمن الحج ما يزيد على مائتي ألف نفس، وتكثر في منازلها الأدوار المسروقة، ولا حوش لها في

الغالب، إلا ما كان لكبرائها.^(١٦) ومبانيها قديمة مشيدة بالحجارة الجيرية، وزينت واجهاتها بالرواشن (البلكونات) ونوافذها بالشيش المتقب (الأرابسك).^(١٧)

وتتراوح بيوت مكة بين ثلاثة وخمسة طوابق، مطبوعة بهندسة معمارية شرقية، وملتصقة ببعضها البعض، وتغطي جدرانها صفوف من نوافذ (مشربيات) عليها ستائر دقيقة تتصدى لجيوش الذباب والناموس. والطابق الأرضي يقوم مقام الفناء، أما الأدوار العليا فمقسمة إلى شقق صغيرة، وعلى السقف سور عالٍ، يشكل طابقاً مكشوفاً، يستخدم للراحة ليلاً، وللطهي نهاراً، تمرح فيه النساء بعيداً عن أعين الرجال.^(١٨)

والبيوت في مكة -على بساطتها- نظيفة جداً، جدرانها مبيضة من الداخل والخارج، وغرفها مفروشة بتخوت منخفضة، تحتها سجاد أو حصير، معدة للجلوس على الأرض، أما زينة الجدران فمن آنية من البورسلين والمعدن ومرايات عديدة، وأقوال ماثورة على ورق ملون ومركبة في أطر، أما لوازم النوم فيخفونها في غرف خاصة، إذ يعتبرون عرضها ابتذالاً. والغرف والسلام مكنوسة بعناية، والحمامات لها أرضية من الأسمنت نظيفة، تصرف ببراعة في خزانات بالشوارع محكمة السداد، وحمامات المنازل ليست لها رائحة، لبعدها عن الخزانات، أما الحمامات العامة على قلنتها فلها رائحة كريهة لا تحتل.^(١٩) وتجلب المياه للمنازل بواسطة سقائين من مجاري عين زبيدة.^(٢٠)

أما الشوارع في الأحياء القديمة فتتسع وتضيق وتتحني بشكل غير منتظم، ويتصل بها أزقة ضيقة جداً. أما الأحياء حديثة البناء مثل أحياء وجرول والمعابدة فشوارعها أكثر انتظاماً، ومبانيها على جانب من الجمال^(٢١) ونظراً لعدم وجود أفنية فإنهم يخلبون الأبقار والأغنام في الشوارع، ويربون فيها الدواجن، وهي مرتع للكلاب الضالة. وغير مرصوفة ولا مضاعة ليلاً إلا بمصابيح جاز يعلقها الأهالي هنا وهناك، وتُكنس الشوارع الكبيرة مرة في اليوم لكنها سرعان ما تمتلئ بالمخلفات،

أما الأزقة فتبقى بها الزبالة مدة طويلة، وتتغفن بها الحيوانات النافقة، والسكان يعتبرون ذلك أمراً عادياً.^(٢٢) وأكثر ما يؤرق الحجاج انتشار الناموس ليلاً، والسبيل الوحيد للخلاص منه الاستتار بناموسية.^(٢٣)

وفيما يلي محاور الدراسة :

أولاً: طبقات المجتمع المكي وأنشطتهم

١ - الطبقة الحاكمة

وكانت تضم الأشراف والأتراك، أما في العهد السعودي فقد تغير الحال؛ ففي المرحلة الأولى تظهر الصورة العامة واضحة من خلال ما سجله الروسي دولتشين بأن مكة يحكمها الوالي (من الأتراك) والشريف الذي تعينه الأستانة. ويعهد إلى المحتسب بحل الخلافات بكل الوسائل بما فيها الضرب. ولحفظ الأمن في الشوارع كانت هناك دورية عسكرية واحدة قرب الحرم. أما حل الخلافات في باقي مكة فيحكمه العرف بين الناس، فإذا حدثت سرقة يقوم الناس بمحاصرة السارق وإيصاله للسلطات.^(٢٤)

أما عن الأشراف فقد اعتادت الدولة العثمانية أن تعهد بإدارة مكة المكرمة إلى أحد الأشراف، فينظر في القضايا الكبرى على حسب نظام أربابها، إن كانوا من الأهالي أو من الأغراب. ومن عادة شريف مكة أن يجلس في دار الإمارة يومياً، فتعرض عليه المسائل المهمة، ويخصص يوم الجمعة لمقابلة الوالي والأعيان وكبار الموظفين. ويسكن الأشراف في الغالب حي أجياد مع الأتراك، ويقضون الصيف في الطائف.^(٢٥)

وينقسم أشراف مكة قسمين، الأول: يعتني بالأدب والشريعة والتجارة، ويسمون الأسياد. والثاني: يحتكر السلاح والأمور العامة ويلقبون بلقب الشريف.^(٢٦) ومعظم الأشراف الذين يعتبرون أنفسهم عرباً، إنما لون بشرتهم أبيض نقي، ولا ريب - حسب رواية الضابط الروسي - في أن المحظيات من شعوب القوقاز يلعبن دوراً

كبيراً في هذا المجال.^(٢٧) ومن عادة أشرف مكة أن كبراءهم يرسلون أولادهم منذ نعومة أظفارهم إلى البادية، ولا سيما إلى قبيلة عدوان شرقي الطائف، فينشئون على البداوة ويتعلمون الفروسية والحرية في الكلام، ثم يعودون إلى مكة بعد أن تشربوا أخلاق البادية.^(٢٨)

واحتل الأتراك مكانة عالية في مكة في ظل الحكم العثماني، فكان منهم والي الحجاز ومقره مكة، وله السلطة في الأمور العسكرية والمالية. كما استأثر الأتراك بالوظائف الكبرى في الولاية والمؤسسات التعليمية والخيرية القائمة على أوقاف تركية. ويسكن الأتراك شعب جباد لارتفاعه وسعة طرقه، وجاءت بيوتهم على الطراز التركي، ويظهر في مساكنهم علامات الثراء من الزخرف والزينة والبُسط العجمية النادرة، وقلت امتيازات الأتراك عندما رفع الشريف حسين راية العصيان في وجه الدولة العثمانية.^(٢٩)

أما في العهد السعودي فقد تبدل الحال فلم يعد للأشراف أو الأتراك وزن يذكر في نسيج المجتمع المكي فرحل معظمهم إلى الأستانة. وبمجرد دخول السلطان عبد العزيز مكة اجتمع بممثلي الأهالي من العلماء والأعيان والتجار قائلاً: أهل مكة أدرى بشعابها فأنتم أعلم ببلدكم وما أرى لكم أحسن من أن تلقى مسؤوليات الأعمال على عواتقكم، فعليكم أن تختاروا ممثلين لكم بموجب أوراق تمضونها من المجتمعين بأنهم رضوا بأولئك نفر لإدارة مصالحهم العامة والنظر في شؤونهم، ثم هؤلاء نفر يجتمعون ويقررون ما فيه المصلحة للبلد، وجمع شكايات الناس ومطالبهم، ويكونوا الوساطة بين السلطان والأهلين، فهم عيون لي وآذان للناس"^(٣٠)

٢ - طبقة العلماء

احتل العلم الشرعي المكانة الأولى - إن لم تكن الوحيدة- في المجتمع المكي. وفي مقدمة هذه الطبقة يأتي القضاة والمفتون، وينظر القضاة في القضايا الشرعية. وفي العهد التركي كان القاضي يرسل من الأستانة،^(٣١) ويرأس حفلات

تتصيب الأمراء، ويمثل سلطة الأتراك الدينية، ويتولى تقديم الخلع السلطانية للأمير. وهناك مفت واحد عن كل مذهب من المذاهب الأربعة.^(٣٢)

وشكل مشايخ الحرم المكي والمعلمون فيه طبقة متميزة، وهم من مختلف المذاهب، ويجرى اختيار شيخ العلماء في الحرم من قبل الحكومة، من رجال الإفتاء غالباً، ويتخذ لنفسه نائباً، ومن مهامه اختيار المدرسين في الحرم وتوزيع الموارد المالية عليهم وفق رؤيته الشخصية.^(٣٣) وقد رصد البنتوني أثناء رحلته ثلاثين معلماً بالحرم الشريف، ولاحظ عدم عنايتهم بالتعليم، نظراً لقلّة العائد المادي، فالراتب من الحكومة العثمانية كان يتراوح بين مائة وخمسمائة قرش عثمانياً سنوياً.^(٣٤)

وكانت مكة ملجأ للعلماء المسلمين في عصر سيطر فيه المستعمر الغربي على معظم بلدان العالم الإسلامي. ومن أشهر علماء مكة في هذه الفترة الشيخ محمد بن سليمان حسب الله (١٢٤٤ - ١٣٣٥هـ) الشافعي الذي أفتى بتحريم التدخين، وتعرض لهجوم كبير من العلماء الذين أفتوا بكراهيته فقط، ومنهم شيخ العلماء أحمد دحلان، كما تصدى لمحاولة بناء ضريح على قبر أبي طالب.^(٣٥) ومن علماء مكة السيد صالح بن بكري شطا، الذي ولد بمكة سنة ١٣٠٢هـ، وكان والده من علماء مكة أيضاً، وهو من المعارضين للحكم الهاشمي، فأصبح من أبرز علماء العهد السعودي، كان عضواً بمجلس الشورى عن مكة عام ١٣٤٥هـ، ثم عهد إليه بإدارة المعارف العامة، ثم عُين مساعداً للأمير فيصل النائب العام.^(٣٦) ومن مشايخ مكة أيضاً أحمد ناضرين (١٢٧٠ - ١٣٥٣هـ) تعلم على يد السيد بكري شطا، وعُين في العهد السعودي عضواً بمجلس الشورى ورئيساً للمحكمة الابتدائية، ثم قاضياً في المحكمة الكبرى.^(٣٧)

٣ - طبقة العامة

ازدهمت مكة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي بعدد كبير

من المسلمين الفارين من مختلف أقطار العالم الإسلامي إثر الهجمة الأوربية، فغدا في مكة من آثار ذلك جبل الترك وجبل الهندي وحرارة السليمانية (الأفغان) وزقاق المغاربة وزقاق البخارية. وشوهدت مكة تنقسم باعتبار الأجناس إلى أقسام تشبه المستعمرات، ونقلت هذه الجاليات معها عاداتها وتقاليدها وأخلاقها، وكثير من صناعاتها. (٣٨)

بلغ تعداد سكان مكة عام ١٣٢٧هـ وفقاً لرواية صاحب الرحلة الحجازية حوالي ١٥٠ ألف نسمة، ولم يقدم غيره من الرحالة إحصاء دقيقاً لسكان مكة (٣٩) وقد أورد توزيعهم كما في الجدول التالي:

الجنسية	العدد	الجنسية	العدد
أفغان وقندهار	١٠,٠٠٠	أهالي مكة الأصليين	٥٠,٠٠٠
شوام	٥,٠٠٠	عرب (وغالهم حجازيون ويمنيون وحضارم)	٢٥,٠٠٠
مغاربة	٥,٠٠٠	بخاريون	٢٠,٠٠٠
أجناس أخرى	٨,٠٠٠	جاوه (ماليزيون)	١٥,٠٠٠
		هنود	١٢,٠٠٠

أي أن أهل مكة الأصليين لا يمثلون أكثر من ثلث سكانها. وأكثر سكان مكة من الأعراب، وقد توطنوا مكة، وتعربوا كلياً بمر الزمن ويمكن تمييز العائلات ومعرفة أصولها. (٤٠)

ونتج عن الاختلاط والمصاهرة بين هذه الأنساب المختلفة أن تنوعت قسما وجوههم وبشرتهم بدءاً من الأبيض تماماً إلى البرونزي القاتم. وعرب مكة أذكاء لطيفو المعاشرة والتخاطب، مجاملون، متأدبون، مع احتفاظهم بشعور العزة والكرامة، وأغنياؤهم منعمون يطيب لهم أن يلبسوا أوفر الثياب ويفرشوا بيوتهم

بالمفروشات الجيدة، يحبون الأكل، يستضيفون ويضيفون.^(٤١)

ويأتي في المرتبة الثانية بعد العرب الماليزيون المعروفون بجاوه، وهم يشكلون خمس سكان مكة ويعرفون بلامحهم، على الرغم من أنهم يلبسون الثياب العربية ويتحدثون لغتها، جاء بعضهم بدافع ديني والبعض بدافع تجاري، ويتميزون بالطبع الهادئ المسالم، حتى ثار المثل "طيب ومسالم مثل جاوه" وهم محبوبون للعلم، مترابطون، متضامنون ولهم كبير يدبر شؤون الجالية. أما أبناء القوميات الأخرى فهم بوجه الحصر تجار أو نظار في التكايا التابعة لقوميتهم.^(٤٢)

وقد نتج عن اختلاط الأجناس في مكة بالمصاهرة والمعاشرة أن أصبح معظم أهلها خليطاً في خُلُقهم وخُلُقهم؛ فتراهم قد جمعوا إلى طباعهم وداعة الأناضولي، وعظمة التركي، واستكانة الجاوي، وكبرياء الفارسي، ولين المصري، وصلابة الشركسي، وسكون الصيني، وحدة المغربي، وبساطة الهندي، ومكر اليمني، وحركة السوري، وكسل الزنجي، ولون الحبشي، بل تراهم جمعوا رقة الحضارة وقشف البداوة، فبينما ترى الرجل قد آنسك برقة حديثه معك، وإذا هو قد استوحش منك وأغلظ في كلامه، وكأن طبيعة البداوة قد تغلبت فيه على طبيعة الحضارة، فلم يطق ما تكلفه في حضرتك. وأخلاق أهل مكة غاية في الكمال وخصوصاً في الطبقة العليا، ولا يؤخذ على مجموعهم خسة بعض السوقية فيهم.^(٤٣)

ويأتي المطوفون والتجار على قمة هذه الطبقة من حيث الثراء، ويستأثر المكيون بالطوافة، إذ لا بد للحاج من مرشد يدلّه ويقضي له حوائجه، فأكثر الحجاج يجهل المناسك، ناهيك عن الطرق. ولكل مطوف وكيل في جدة يستقبل الحجاج التابعين له. وقد يذهب المطوف بنفسه إذا كان بين الحضور شخصية مرموقة. وللمطوف صبيان^(٤٤) وخدم يساعدون الحجاج في عمليات النقل والترحال والسكن، وأحياناً ينوبون عنه في إرشاد الحجيج إلى المناسك وأماكن الزيارة والنزهة والشراء. ويحصل المطوف على أجر لقاء الوساطة في تدبير المسكن ودواب الترحال وشراء لوازم الحجيج وإحضار الأضاحي إلى منى.^(٤٥)

وللطوافة شيخ يحافظ على تقاليد المهنة، ويشرف على المطوفين، ويساعد الحكومة في تطبيق الأنظمة والتعليمات الخاصة بطائفته، ويقرر قبول أعضاء جدد في المهنة، ويتابعهم ويحدد صلاحياتهم ويراقب سلوكهم وأخلاقهم. وتلعب الوساطة والعلاقات الشخصية والهدايا دوراً بارزاً في قبول المطوفين الجدد، على الرغم من إظهار الشيخ العدل بين أفراد مهنته. ويقوم العضو الجديد بعمل وليمة لأفراد الطائفة، وأمام الجميع يطلب العضو الجديد من الشيخ أن يسمح له بممارسة الحرفة، ويتعهد بالسمع والطاعة وأن يكون أخاً صالحاً لزملائه، ويقرأ الجميع الفاتحة بنية التوفيق والقبول. وينطبق ذلك على جميع الحرف في مكة.^(٤٦)

وقد سجل الرحالة جهلاً دينياً لكثير من المطوفين، خاصة في مسألة المزارات وما ينسج حول بعضها من أساطير، وينظر بعضهم للحجاج نظرة طمع لجني ربح وفير.^(٤٧) ويستبد المطوفون بالحجاج ويرغمونهم على دفع ما يفرضونه من مكوس، لا يفرقون بين غني وفقير. ويقول أمير الحج المصري عام ١٣٢١هـ "ليس بمكة من يرفع ظلم هؤلاء فإذا كتبت إلى الشريف أو الوالي رسمياً كان جوابهما إننا لا نتدخل في أمور الحج"^(٤٨) وقد يعقد المطوفون مزايمة على أغنياء الحجاج. ويسافر المطوفون بعد موسم الحج إلى الخارج لزيارة من تعرفوا عليهم أثناء الموسم، ويعودون محملين بأموال البذل^(٤٩) والهدايا.^(٥٠)

أما تجار مكة فلهم المكانة الأفضل، ومعظمهم من الهنود، والمنافس الحقيقي للهنود الحضارم، الذين جاءوا إلى مكة بدون أي ثروة، فيعملون في خدمة التجار، ثم ينتقلون للعمل لحسابهم، عندما يتقنون فن التجارة ويجمعون قدراً معقولاً من المال. والتجار يكسبون أموالاً طائلة من التجارة وإقراض المال للأهالي، ويتم إقراض المال بأن يبيع التاجر للمدين بعض حاجات بأسعار عالية جداً، على أن يدفع ثمنها في وقت لاحق، ويأخذ صكاً بذلك، ثم يعود ويشتريها منه بثمن بخس، ويعطيه الثمن الأخير.^(٥١)

وتلعب مكة دور الوسيط في التجارة استمراراً لدورها القديم، فتجبي إليها

متاجر الغرب لبيعها للحجاج دون أن يكون للمسلمين دور فاعل في صناعتها، حتى أن ما يشتريه الحاج من سجاد للصلاة على سبيل التبرك إنما هو من صناعة الغرب، يضاف إليها الأطعمة مثل الجبن والبسكويت وما إليها.^(٥٢) ولا تنتج مكة سوى أشياء قليلة مثل المسابح والخواتم الفضية والحناء والآراك (السواك).^(٥٣) وتنتشر محلات التجار في كل مكان، فهي تملأ حتى شارع المسعى. وتتحول مكة إلى سوق كبير في الحج ويبدو ليلاً كنهارها، الطرق تعج بالناس، فالباعة والحجاج والمتسولون الجميع خرج يلتمس الرزق.^(٥٤) والأكثر رواجاً تجارة العملة نظراً لقدم الحجاج من مختلف دول العالم، فيشتري التجار العملة بسعر منخفض ويبيعونها بسعر مرتفع.^(٥٥)

ولا يتورع تجار مكة - شأن التجار في أي زمان ومكان- عن استغلال الظروف واحتكار السلع الغذائية، وهذا ما حدث إبان الحرب بين آل سعود والأشراف، فاستمرت الأسعار في ارتفاعها رغم انتهاء الحرب وفتح الموانئ للاستيراد، فاضطرت الحكومة إلى إصدار بلاغ لكافة أهالي البلد الحرام، بالتحذير من احتكار الأرزاق والأقوات، وهدد المحتكرين بمصادرة السلع المحتكرة وبالعذاب الأليم.^(٥٦)

أما عن العمال والحرفيين، فالفقراء من أهل مكة يعملون عند التجار الأجانب، يتجولون بالبضائع في الحارات والأزقة، يعرضونها على الحجاج في المنازل، ولهم نظير عملهم جزء بسيط لا يفي بحاجتهم.^(٥٧) وللحلاقة أهمية خاصة في بلد الله الحرام، باعتبار أن التحلل من الحج والعمرة يتطلب الحلق أو التقصير، لذا انتشرت محلات الحلاقة بجوار الحرم وازدحم بهم شارع المسعى. كما مارس الحلاقون الحجاماة والختان ومداواة الجراحات البسيطة. وكان الحلاقون يتقاضون من الفقراء مقابل عيني مثل قطع الخبز.^(٥٨) وهناك حرف البناء والنجارة وما يتعلق بها، والعرب حرفيون مهرة في النقش على الخشب والحجر، ويمتلكون ذوقاً رفيعاً.^(٥٩)

والصناعة لا تخرج عن صياغة بعض قطع ذهبية وفضية، والحدادة بسيطة لكنها دقيقة في عمل الأسلحة، وبمكة فرن لصناعة القلل والدوارق الفخارية، وكلها في يد الأجانب.^(٦٠) أما حرفة السقاية فيقوم بها بعض الفقراء، ومع موسم الحج يتوافد أعراب من المناطق المحيطة فيشتغلون بالسقاية.^(٦١) واختفت باقي الحرف من الصورة لدى الرحالة.^(٦٢) ويقوم أهل مكة بتربية الماشية والأغنام وبيعها للحجيج ليكون منها الهدى، إلى جانب تقديم الخدمات للحجيج.^(٦٣)

ودعت هذه الحالة الاقتصادي طلعت حرب أن يلفت الأنظار إلى عدة مشروعات تخدم أهالي البلد الحرام، منها إنشاء شركة لتعبئة مياه زمزم في زجاجات معقمة وبيعها في جميع أنحاء العالم الإسلامي. وتزويد مكة بالكهرباء لإنشاء مصانع نسيج ودباغة وسلخانة صحية وورش لتصليح السيارات. وأشاد بمصنع كسوة الكعبة الذي وفر فرص عمل للكثيرين.^(٦٤) وهذه نظرة عملية إيجابية تميز بها طلعت حرب رائد الاقتصاد المصري الحديث وصاحب الشركات المتعددة آنذاك في مصر، مثل مصر للغزل والنسيج ومصر للطيران ومصر للملاحة وغيرها. وقد لقيت رؤيته رواجاً في مكة بعد ذلك.

٤ - الرقيق

اعتاد أهالي الحجاز على استخدام الرقيق، فمدار حركة النقل الشاقة على العبيد، إذ منهم الحمّالون والحطابون والجمّالون والسقّاءون والخدم. وفي مكة قلت تجارة الرقيق تدريجياً لكنها كانت تنتعش في موسم الحج، فقد يشتري الحجاج العبيد ليعتقوهم، إما كفارة أو إحساناً، والرقيق المعتوق يحمل وثيقة بذلك من القاضي. وقد يشتري الحاج عبداً أو أمةً ويعود بها إلى بلاده، فعندما سافر الشيخ حسن الجبرتي (المصري) إلى مكة للحج اشترى جارية أهداها لزوجته، فأعتقتها وأقامت لها منزلاً وزوجتها من الشيخ حسن، ورزقت منه بأولاد.^(٦٥)

ويجلب الرقيق من الساحل الأفريقي للبحر الأحمر، وهم على جنسيتين؛

الزواج السود تماماً ويشترتهم الحجازيون رجالاً ونساءً للعمل فقط. أما الأحباش الأقل سواداً فيشترون النساء منهم كمحظيات. وبعض الرقيق مستولد في مكة. وفي الحجاز يشترط أن يثبت رق العبد في بلاده قبل البيع، بسؤال المشتري للعبد نفسه.^(٦٦) لكن هذه المسألة كان يشوبها كثير من الغموض، فمعظم الرقيق أولاد مخطوفون، يشترتهم تجار محتكرون ينقلونهم على سفن خاصة إلى سواحل الحجاز، حيث يباع الفتى منهم ما بين خمس وعشر ليرات تركية،^(٦٧) والفتاة الزنجية الراشدة بحوالي عشرين ليرة، والفتاة الحبشية والعامل الزنجي أو الحبشي ما بين ثلاثين وأربعين ليرة. وفي مكة لا يكاد يخلو بيت من عبدٍ وأمةٍ يقومان بجميع أعمال المنزل. ويشك كثير من أهل الحجاز في شرعية هذا الرق فيعتقدون الرجال ويعقدون النكاح على بعض النساء^(٦٨)

ويعمل الرقيق النوبي (الزنجي) في الأعمال الشاقة من قطع الأحجار والأحمال والبناء، ويتعلمون حرفة كما يتعلمون شعائر الإسلام. ولكل مجموعة منهم شيخٌ يفض منازعاتهم ويعاقب المذنبين. ولهم احتفالٌ شعبيٌّ خاصٌ بهم من بعد ظهر الخميس حتى صباح الجمعة يعزفون فيه موسيقاهم على أدوات زنجية مثل الطنبورة^(٦٩) والطبول، ويغنون أناشيدهم ويرقصون رقصاتهم الشعبية، ويحزم أحدهم بحزام معلق به حوافر الغنم ويرقص فيهم نفسه هزاً عنيفاً ويحدث صوتاً قوياً، ويصطف الحضور حلقة دائرية يغنون لعدة ساعات أحياناً رتيبة. ويتقدم شبان وسط الحلقة فيتبارزان بالعصا. وبعد ظهر الجمعة يعودون لأعمالهم.^(٧٠)

وقد زار دولتشين سوق النخاسة في مكة فوجده حوشاً ليس بالكبير يطل على غرف لمبيت الأرقاء ليلاً، كان بالسوق آنذاك حوالي ثمانين نفساً، معظمهم شبان حبشيات، منهن ثلاثة معهن أطفال رضع، جميعهن مزيئات ومصفوفات للعرض، والشباب مقصوص الشعر، والأطفال يلعبن، والتاجر عربي يعلن عن بضاعته، فيأتي المشترون ويعينون البضاعة.^(٧١) ويقبل المشتري شراء الرق بعد اقتناعه وبعد سؤاله: هل تقبل خدمتي؟ وإذا حاول الدلال خداع المشتري فقد يظهر الرق الخدعة

للمشتري حتى لا يجني هو عقباها. وقد تبكي الفتاة عند بيعها من قبيل الحزن على مفارقة الزميلات.^(٧٢) وفي بداية العهد السعودي وضعت الإماء حجاباً، فلا يرى وجههن إلا عند الشراء. وللأمة أن تبدي موافقتها بإيماءة أو ابتسامة تعلق وجهها.^(٧٣)

ومعاملة الرق مرهونة بأخلاق السيد، ولكنها في الغالب معاملة حسنة، فكثير من المكيين يحسنون إلى الرقيق ويعتبرونه من أفراد الأسرة. وقد يتعرض الرقيق للضرب عقاباً، وهذه من أصول التربية حتى للأولاد في البيئة العربية، الأمر الذي يساء فهمه من قبل الأوربيين. ويضيف هورخورنيه قائلاً: "إن آلاف الزوج الذين يحملون إلى ديار الإسلام حين يتذكرون حياتهم الأولى يعتبرون أنفسهم خُلُقوا من جديد من خلال الاسترقاق، إنهم لا يريدون العودة إلى حياتهم الأولى"^(٧٤)

والإساءة الحقيقية للرقيق، والتي لا يقرها الإسلام، هي عملية الخصي، ويستخدم نتائجها في خدمة نساء الطبقة العليا أو يقومون بالخدمة في الحرم، ويطلق عليهم الأغوات، وهؤلاء يستوردون مخصيون من الخارج، وقد انقرض عددهم مع بداية القرن الرابع عشر الهجري.^(٧٥) وفي السادس من نوفمبر ١٩٦٢م/ ١٣٨٢هـ أصدر الأمير فيصل - رئيس الوزراء - أوامره بإنهاء الرق في المملكة، وعتق الرقيق وتعويض أصحابه عن أثمانه، وذلك في عهد الملك سعود.^(٧٦)

ثانياً: الأسرة والعادات والتقاليد

* المرأة

اتفقت آراء الرحالة على أن المرأة المكية أشد نساء العالم تمسكاً بالزني الإسلامي، وأعظمهن صيانة لشرفها وأحفظهن لأنوثتها، فهي لم تنغمس في تيار المدنية الجارف، وهي بعيدة عن الاختلاط، حتى في التزاور لا يلتقي الجنسان، وتخرج من بيتها وقد غطت وجهها بغطاء كثيف لا يتخلله سوى فتحتين صغيرين أمام العين، وقد نسجتها نسجاً خفيفاً، ولا يدخل على المرأة خادمها، وإنما يكلمها

من وراء حجاب. ولا يدخل المنزل رجل قط إلا في حضور الزوج. ومن السلبيات أن بعض النساء يدخلن النرجيلة،^(٧٧) ويتركن شؤون المنزل للخدم، ويثقلن كواهل أزواجهن بالنفقات الباهظة.^(٧٨)

وملابس المرأة المكية في بيتها متنوعة ومطرزة الحواشي بالذهب والفضة، وتشد على وسطها حزاماً ذهبياً، وهناك غيرة بين النساء في الأزياء، الأمر الذي يرهق الرجال. والمرأة المكية طيبة أسرتها، بما لديها من خبرة في الوصفات من الأعشاب والتوابل.^(٧٩) وتتمتع نساء مكة بقدر كبير من الحرية في ارتياد الأسواق والمساجد وحدهن، وبعضهن تعمل بالتجارة في الشوارع، وقد تقع عليهن العين في المحكمة أمام القاضي حاملات الشكاوي ضد أزواجهن أحياناً^(٨٠) فللمرأة أن تتقدم بطلب طلاق للقاضي لسبب ما، مثل المعاملة السيئة أو العجز عن النفقة أو عدم توفير المسكن المناسب. والمرأة المكية لها حق تقليدي مكتسب يتمثل في عدم السفر مع زوجها خارج مكة. والأرامل والمطلقات منهن يرحبن بالزواج من الأجنبي إن كان غنياً وبقي في مكة.^(٨١)

* الزواج

تتناسب تقاليد المجتمع في الزواج مع طبيعته، فالاختلاط بين الأولاد والبنات حتى سن الثامنة فقط، وقد تبقى صورة الفتاة عالقة لدى الشاب وتشكل أساساً في اختياره. وفي الغالب يكون الاختيار في الزواج الأول لرغبة الأُسرتين في المصاهرة، دون رغبة الزوجين، والأمر لا يكون فيه إكراه حيث يرضى الأبناء باختيار الأهل. ولا يستطيع الشاب رؤية وجه الفتاة التي يريد خطبتها، إلا إذا نجحت أمه أو أخته في استدراجها إلى غرفة الحريم، فيراها من عين سرية تطل من غرفة خاصة على غرفة الحريم.^(٨٢)

وتبدأ مراسم الخطبة بزيارة سيدة من أهل الشاب لبيت العروس، فإن وجدتتها مطابقة للمواصفات أعلنت رغبتها في المصاهرة، ويظهر الرد في حسن الاستقبال

وعبارات الترحاب. ثم ترسل أسرة العريس متحدثاً لبقاً لتأكيد الرغبة في المصاهرة، ويقراً الأُسرتان الفاتحة لتأكيد الخطبة، ثم يقدم أهل العريس المهر على صينية من فضة ومعه قطعاً من الذهب والحلوى والهيل والفل، والصينية مغطاة بقطعة من النل حواشيها مطرزة بالذهب، ثم يعقد القران في المسجد الحرام غالباً، ويستكمل الحفل في منزل العريس.^(٨٣)

وتتحدد قيمة المهر وحفلة الزفاف طبقاً لمستوى الأسرتين، والمهر يضمن حياة كريمة للزوجة في حالة الانفصال أو وفاة الزوج، لذا تغالي أسرة العروس في المهور. كما تبالغ في مستوى حفلة الزفاف، الأمر الذي يؤخر سن الزواج.^(٨٤) ويجامل أهل مكة بعضهم بعضاً في إطار تكافلي، فنتلقى أسرتنا العريس والعروس الهدايا في ليلة الصنيع (الحنة) من أرز وسكر وشاي وسمن وخراف. وقد يستعير أهل العروس جملة من الحلبي، لذا وجد من امتهن تأجير أنواع الحلبي مدة الفرح.^(٨٥)

ويستمر حفل الزواج ثلاث ليالٍ، في الليلة الأولى تتزين العروس بالحناء والحلي وتصيف الشعر وما إلى ذلك، على يد سيدة متخصصة، وتتوافد عليها الصديقات فيغنين بالدفوف، ويستمر الحفل إلى منتصف الليل. وفي الليلة التالية يتم تجهيز كرسي الزفاف (الأريكة) بالستان (نوع من القماش) والحلي في غرفة بالمنزل، وتعلق القناديل أمام المنزل، ويقدم الغداء من الأرز واللحم، ويرسلون صينية طعام لبيت العريس، ويستمر غناء الجواري إلى آخر الليل.^(٨٦)

وفي اليوم الثالث (الزفاف) تفرع الطبول طوال النهار وتغني الجواري، ويفتح الحيران أبوابهم لاستقبال الضيوف، وتتزين النساء المدعوات بأجمل الملابس والمجوهرات، والشعر المضفر بقطع العملة القديمة ومغطى ببشمك^(٨٧) مطرز بالذهب، بدلاً من المحرمة المعتادة، ويرتدين ثوباً من الحرير الخفيف الشفاف فوق الصديري والسروال، وقربيات العروس يرتدين القلادة المتدلية من الرقبة إلى الركبة.^(٨٨) بينما تقوم الماشطة بتزيين العروس بالحلي والذهب واللؤلؤ. وترتدي

العروس قلادة طويلة من حبات التفاح الصغير والورد والفل والقرنفل، ثم تقوم الجواري بزفافها. (٨٩)

ولا تخرج العروس من منزل الزوجية لمدة سنة كاملة، تتدرب خلالها على بعض الأعمال المنزلية، بعدها يمكنها أن تخرج لزيارة بيت أهلها لأول مرة بعد الزواج، ويمكنها أن تذهب للتسوق. (٩٠)

* استقبال المولود

تأتي تسمية المولود ليلة السابع في حفل يدعى إليه الأهل والأصدقاء، وقد يختار الوالدين اسم المولود أو يتركه للشيخ العالم الذي يحضر الحفل، فيتسلم الطفل ويؤذن في أذنه اليمنى ويقيم في اليسرى، ويهديه بعض المال، ثم يعطي الحضور هداياهم للطفل، وبعد تقديم الحلوى ينصرف الحضور، ثم يعودون في اليوم التالي لحضور الوليمة، ويذبح فيها شاة أو اثنتان، وكثير من المكيين يقوم بهذه العادة دون إفرانها باسم العقيقة. أما حفلة النساء فتكون بعد أربعين يوماً، للاحتفال بالأم، وفيها يتناولن الطعام ثم يتوجهن للحرم عند المغرب معهن الطفل ويسلمنه لأحد الأغات، فيضعه على باب الكعبة قرابة عشر دقائق، ثم يعيده لأمه ويتلقى منها هدية، ويعود الجميع إلى المنزل بعد صلاة العشاء. (٩١)

* عادات الملابس والمأكول

تأثرت أزياء أهل مكة باختلاط أجناس سكانها، فترى مجموعة مختلطة من أزياء البلدان الإسلامية، عمامة هندية وجلباب مصري وجبة شامية، ومنطقة تركية فيها خنجر تراه في حزام الأشراف مفضضاً أو مذهباً، وكثيراً ما يكون مرصعاً بالأحجار الكريمة. وقد حافظت طبقة الأشراف على لباسها فلا ترى فيه اختلاطاً. وتكثر في لباس أهل مكة الألوان الزاهية وخصوصاً الأحمر والأخضر والأزرق والوردي. (٩٢)

وللمكيين الأصليين ولع خاص بالتأنق في الملبس، فيلبس العلماء والتجار والطبقة المتعلمة فوق الملابس الداخلية شاية عبارة عن جبة مفتوحة تربط بحزام من الوسط لقلها، وفوقها جبة واسعة فضفاضة بأكمام واسعة وعلى الرأس عمامة.^(٩٣) ويظهر أولاد الحارة من العمال وصغار الباعة وأصحاب الحرف في زي بسيط مكون من ثوب يشدون عليه حزاماً في وسطهم ليزيدهم قوة أثناء العمل، يضيفون إليه أحياناً ميثاناً.^(٩٤) أما العامة فترى الرجال يوشون ملابسهم بالتطريز، حتى تجد السروال مشغولاً على حافة رجله، والجبة أو الجاكيت من ألوان زاهية، ويتعممون بشال مطرز وملون فوق طاقية من البفتة.^(٩٥) أما الملابس في ظل الحكم السعودي فهي الجلباب الأبيض - في الغالب - وتحتة سروال، وقد يلبس كبار السن وأصحاب المناصب عباءة، وتغطي الرأس طاقية بيضاء فوقها " غطرة " بيضاء أو " شماغ " أحمر وعقال.^(٩٦)

أما بالنسبة للمأكل فغذاء أهل مكة التمر مع السمن، واللحم مع العسل، وخبزهم من الحنطة، وذبائحهم من الجمال والأغنام، وقليل من الدجاج البلدي.^(٩٧) وتتمتع مكة برخص المعيشة، فاللحوم والخضراوات متوفرة لا يرتفع ثمنها إلا في موسم الحج.^(٩٨) ويهتم أهل مكة بالطعام الدهني المكون من الأرز واللحم والتوابل مرتين في اليوم ظهراً ومساءً. والماء مبرد في أباريق وجرار مسامية فخارية توضع في مجاري الهواء في المشربيات.^(٩٩) ويتفنن المكيون في إعداد الطعام على الطرق العربية والهندية والشامية والمصرية والتركية. ويتفاخرون بكثرة الأطعمة، ويقلد صغيبرهم كبيرهم في التظاهر بالكرم ولا سيما في رمضان.^(١٠٠)

والشاي من ضروريات الحياة في مكة، فالجميع يشربونه ولهم اهتمام خاص به، فكل منزل به موقد للشاي، ويشربونه ثقيلًا جداً ومحلى تماماً وبمقادير صغيرة، وكثيرون يدخنون التبغ، وعلى الأغلب النرجيلة.^(١٠١)

ومن عادة أهل مكة أن توجه كل حارة على حدة الدعوة سنوياً للشريف، فإن قبلها أقيمت وليمة في المنتزهات خارج مكة، فيسير إليها في موكب فخم تجري

أمامه خيالة العرب، والناس يهتفون (يعيش) وبعد الطعام يلعب العرب ألعاب الفروسية بالخناجر والسيوف إلى آخر النهار، ثم يعود الشريف في موكبه أول الليل. كما كان من عادة أهل مكة الإفطار في الحرم في رمضان، لكن الشريف عون أبطل هذه العادة مراعاة لنظافة الحرم. (١٠٢)

وعامة أهل مكة يأكلون اللحم والثريد والأرز. أما صورة الحياة الحديثة في المأكل - التي سجلها هيكل في أول العهد السعودي - فيمثلها خاصة القوم، الذين يتكلمون في حضرة الأعراب فيجلسون على الكراسي ويستخدمون الملاعق والشوك. ويحرصون على عادة انتقلت لهم مع أهل نجد، فما أن يمتلئ المجلس حتى يدور عليهم الخدم بالشاي والقهوة ومباخر يحرق فيها عود ذكي الرائحة. فيحبسون عقبه تحت العباءة ويستشقونه. (١٠٣)

* عادات المأتم

في حالة الوفاة تصرخ امرأة من أقرب الناس للمتوفى صرخة أو صرختين إعلاناً بالمصيبة، فتتوافد عليها النساء، وبعد أن يعزينها بكلمات بسيطة يتحدثن في شؤون الحياة ثم ينصرفن، ويتولى الأقارب عملية الدفن. (١٠٤) حيث ينتظر الناس بجوار المنزل حتى تخرج الجنازة فيصلون عليها، ويتجهون بها إلى مقبرة المعلاه، فتسمع أحدهم يقول "وحدوه"، ويرد الجميع "لا إله إلا الله". ويستمر العزاء ثلاثة أيام، يقدم خلالها أهل المتوفى الطعام للمعزيين، الذين يشاركون في تلاوة القرآن والدعاء للميت، واستمرت هذه العادة بالرغم من دعوة مفتى الشافعية بمنعها وإبدالها بتقديم الطعام لأهل الميت. (١٠٥)

وتمر مراسم المأتم بعدة مراحل مكلفة للغاية، ففي أعقاب الدفن يعود المشيعون إلى منزل الفقيد، فيجدون سماط الطعام ممدوداً فيلتهمون له ليجبروا خاطر أهل الميت، الذين لا يجد الطعام إلى جوفهم سبيلاً، لحزنهم على الفقيد، وفي اليوم الثالث يعد أهل الميت حلوى (اللوزية) فيجتمع لها الناس يأكلونها ويشربون

القهوة ثم ينصرفون. وبعد اليوم الثالث تبدأ المرحلة الثانية الخاصة بالنساء حيث تقدم لهن وجبات مما لذ وطاب، وتمتد أيام الوجبات بحسب منزلة أهل الميت من الغنى والفقر، فإذا انقضى على الميت في قبره عشرين يوماً أقيم له مأتم حافل^(١٠٦) يدعى إليه الناس فيقدم لهم أشهى الطعام، فإذا انقضى على الميت أربعين يوماً تكرر ذلك، وفي الذكرى السنوية يصنع أهل الميت مثل ذلك، وتستمر العادة حتى إذا مات في البيت ميت آخر تعاد الكرة مرة أخرى.^(١٠٧)

وتتكرر عادة تقديم الطعام عن المتوفى في بعض الأسر بشكل آخر، فبعد مضي عدة أيام على الوفاة يقيم أهل الميت مأتماً، فيجتمع الناس على قراءة القرآن، ثم يقدم لهم الطعام من لحوم وغيرها بكميات كبيرة جداً. وقد دعا العلماء في ظل الحكم السعودي إلى إبطال هذه العادات لأنها ليست من السنة في شيء، والواجب إعداد الطعام لأهل الميت لأن عندهم ما يشغلهم.^(١٠٨)

ثالثاً: الأعياد والموائد

يستعد رب المنزل لعيد الفطر بشراء الملابس الجديدة لأهل بيته وخدمه، وشراء الحلوى والعطور لزواره، وفي ليلة العيد يخلق شعره ويجلس للحجامة عند الحلاق أيضاً لاستعادة النشاط. وفي المنزل تجري أعمال الطبخ والتنظيف والفرش على قدم وساق، ويخرج الجميع لصلاة العيد في ملابسهم الجديدة، ويعودون للبيت فيأكلون ويشربون ويتسامرون ويتبادلون زيارات قصيرة وسريعة، فتقدم لهم الحلوى واللوز والشاي والقهوة، ثم العطر قبل الانصراف، ويلهو الأطفال في الشوارع الكبيرة ويركبون المدارية (الأرجوحة) وتستمر الاحتفالات ثلاثة أيام. وتبدأ زيارات النساء سابع أيام العيد فيتزاورن ويتسامرن وقد يخرجن في جماعات للنزهة. أما فرحة عيد الأضحى فهي للحجيج في منى أما بالنسبة للعامة فهو أقل بهجة، ويستثمر الكثير من أهل مكة عيد الأضحى في حمل المبيعات للحجاج بمنى علاوة على عمل الحلاقين والجزارين.^(١٠٩)

وفي مكة يبدأ الاحتفال بالمولد النبوي ظهر يوم الحادي عشر من ربيع الأول إعلاناً للمناسبة، ومع آذان المغرب يتجمع الناس بأعداد كبيرة في المسجد الحرام، كما تخرج المرأة المكية بأطفالها في زينتهم، وتزدان الحوانيت على طول الطرق المؤدية للمسجد بألعاب الأطفال ومختلف أنواع الحلوى المعدة لهذه المناسبة، ويجلس الإمام على منصة خشبية عند الكعبة ويخاطب الناس في قصة مولد سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم، وفي مكان الصدارة يجلس شريف مكة والوالي العثماني في حاشيتهما، ثم يخرج موكب من المسجد يضم عليه القوم، يتقدمهم كبير المؤذنين ينشد في مدح النبي، وخدمته المسجد يحملون القناديل، ويسير الموكب عبر سوق القشاشية وسوق الليل إلى بناية القبة في شعب علي، حيث ولد الهدى صلى الله عليه وسلم، وتقام صلاة جامعة هناك، ثم تقام حفلات السمر واللقاءات الاجتماعية، ويسهر الناس على المقاهي، في حين يقيم المتصوفة حلقات يرددون فيها قصيدة البردة وغيرها من قصائد المديح. والاحتفال بالإسراء والمعراج يكون بالطريقة ذاتها^(١١٠)

كما كان يحتفل في مكة المكرمة بالعديد من الموالد والذكريات، ومنها مولد السيدة ميمونة زوج النبي عند مدفنها بالزهراء على أول طريق المدينة، فينصبون خيامهم عند القبر في الصحراء ويتفاخرون بكثرة الطعام والشراب.^(١١١) كما يحتفل المكيون يومي ١١ و ١٢ من كل شهر بذكرى السيدة خديجة والسيدة آمنة بنت وهب، بعد أن أقيم لهما ضريحان في المعلاة، فيتحول المكان إلى متنزه كبير لأهل مكة في هذين اليومين، وتخصص أوقات للرجال وأخرى للنساء.

وأشهر احتفالات نساء مكة في ذكرى "الشيخ محمود الأدهم"^(١١٢) ففي ١٥ جماد الآخر من كل عام يعج المكان بالنساء لمدة ثلاثة أيام، فيصطحبن جواري محترفات في الغناء، ويتسامرن بالغناء والحلوى، ويستضيف البدو في جروم نساء العائلات الصديقة أيام الاحتفال، ولا يملك الرجل في مكة إلا أن يلبي رغبة زوجته في الذهاب حتى لا تصبح مسار سخرية جاراتها.^(١١٣) ويتوافق مع احتفال النساء

السابق احتفال آخر للرجال في السابع عشر من جماد الآخر بذكرى الشيخ المهدي^(١١٤) وهذه الصورة تشبه إلى حد كبير صورة المجتمع المصري في كتب الرحالة الأوربيين، في الفترة نفسها. وقد انتقلت معظم البدع والخرافات إلى هذه المناطق من بلاد المغرب ووسط أفريقيا وشرق آسيا، عن طريق التجار والحجاج.

وعندما دخل آل سعود إلى مكة أبطلوا هذه الاحتفالات وهدموا الأضرحة والمزارات، موضحين أنها بدع دخلت العالم الإسلامي، عندما طرأ على ممالك المسلمين الضعف السياسي والديني، فاتخذ المسلمون وسائل تسلية يظهرون من خلالها شيئاً من القوة باجتماعهم، وأكثر ما ابتدعوه قلدوا فيه اليهود والنصارى، فجعلوا من الدين ما لم يأذن به الله، فاخترعوا أعياداً وموالد جعلوا لها صبغة دينية، وربطوا بينها وبين القبور والمزارات، وأطلقوا عليها بدعة حسنة.^(١١٥)

رابعاً: الأمراض الاجتماعية

تتعدد صور الأمراض الاجتماعية من سرقة وسحر وشعوذة وتسول إلى ارتكاب الفواحش. فما أبعاد هذه الصورة؟ وما دور السلطة السياسية في التصدي لها. وأول هذه الصور السرقة وقطع الطريق، وفي الغالب يكون سكان مكة والحجاج في موقف المفعول به، أما الفاعل فهو إما من البدو أو القادمين من الخارج. فالبدو يتتبعون القوافل كالذئاب الجائعة التي تتبع القطيع، متخفين نهاراً وينشطون عندما يرخي الليل أستاره. ولم تستطع سلطة شريف مكة والوالي العثماني التصدي لاعتداءات البدو بأية وسيلة.^(١١٦) ولا يسلم أهل مكة من اللصوص، فيتخلف كثير منهم عن أداء فريضة الحج، لحراسة بيوتهم، فيقطعون ليلهم سهرًا ويطلقون نيران بنادقهم بين الحين والآخر، إعلاناً بأنهم يقظون.^(١١٧)

أما في العهد السعودي فأصبح قطع يد السارق أمراً ظاهراً، لذا يقع الناس على الشيء في الطريق فلا يقربونه، بل ربما مالوا إلى طريق غيره، حتى يمر شرطي فيحمله ويبحث عن صاحبه، وتنتشر أخبار اللقطات في جريدة أم القرى.

أما العشائر التي اعتادت السطو، فينذرها الملك عبد العزيز ثلاث مرات، فإن لم ترتدع، بعث عليهم أحد رجاله في فرقة من الإخوان، دون أن يعلم أحد، فيصلون الفجر بالقرب منهم ثم يصبحونهم فلا يبقون ولا يذرون، فيتركونهم عبدة لغيرهم.^(١١٨) وبلغت هذه الصورة الإيجابية أن التجار يهرعون إلى الصلاة في المسجد، تاركين حوائثهم مفتحة الأبواب وهم في مأمن من اللصوص. وتطبق الحكومة السعودية الحدود علناً وتعلن أسماء المجرمين وصورهم وجريمة كل منهم والقصاص الذي لحق به، في لوحة معلقة على أسوار قسم الشرطة، كتب في أعلاها الآية الكريمة " وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ " (١١٩) فأصبح استتباب الأمن في الحجاز حديث الناس وسمر العائدين من رحلة الحج. (١٢٠)

والصورة الثانية من صور الخلل الاجتماعي خاصة بالسكر والشعوذة الذي جاء إلى مكة المكرمة من وسط أفريقيا وجنوب شرق آسيا. وتكمن الدوافع في محاولة إيذاء الآخرين لحقد أو حسد، وكان التصدي لهذه الشرور على الدرجة ذاتها من الجهل فاضطر كثير من أهل مكة آنذاك أن يعلقوا الحجب والتمايم في أعناقهم، أو أن يلبسوا خاتماً صغيراً وقاية من أنواع الشرور، وعلق بعضهم حُجُباً مغطاة بصفائح من فضة على صدور أبنائهم، وعلق البعض الآخر قطعاً من العملة القديمة. وانحرفت الرقية فإذا مرض أحد أفراد الأسرة كانت المرأة تحرق البخور مع المستكة لتخويف قوى الظلام، أو أن تحرق الفاسوخ مع الملح في مبخرة نحاسية للوقاية من الحسد، كما كانت تنذر النذور للموتى من المشايخ في حالة شفاء المريض، أو أن يأتي المريض أحد المشايخ فيكتب بعض الحروف والكلمات على ورقة ويحرقها، ثم يذيبها في ماء يشربه المريض. ويضع التاجر على باب المحل حذاءً قديماً للوقاية من العين. وفقد المكثون كثيراً من متع الحياة بسبب الخوف من العين والحسد. (١٢١)

وجاء انتشار هذه الخرافات العلاجية في غياب الوعي الطبي وندرة الأطباء

المتخصصين، ففي مكة - شأن معظم العالم الإسلامي آنذاك- كان الطب مهنة حلاق الصحة، الذي يقوم بالحجامة والختان والكي ومعالجة الجروح، كما مارس الطب غير المتخصصين ممن ورثوه عن أهلهم، فيتحدث أحد الرحالة عن طبيب مشهور، مهنته الأصلية صهر الذهب والفضة وتشكيل الحلي، وله خبرة في تقطير الزيوت العطرية وتصليح الساعات والبنادق، ومع ذلك يمارس الطب العام بكفاءة، ويتعرف على المرض من خلال جس النبض والنظر في العين واللسان، ويقدم وصفات مستخلصة من عند العطار. (١٢٢)

وهناك أيضاً تلبس الجن ويسمى الزار، والغريب أن معظم المصابين به من النساء، ويُعتقد أنه لا يطرد من الجسد إلا على يد شيخة الزار، وبمطالب معينة من ذهب وملايس فاخرة ومأكولات متنوعة، ويطقوس خاصة منها دق الطبول والغناء، وذبح شاة يلطخ بدمها أجزاء من جسد المريضة، مع ضربها ضرباً خفيفاً، وغيرها من الممارسات الغريبة. ويحضر حفل الزار عدد من صديقات المريضة (١٢٣) حيث يتناولن الطعام والشاي والقهوة، وتستهيهم العملية فتتصيدهن شيخة الزار واحدة بعد أخرى، ويجد الرجل نفسه مضطراً لتلبية رغبة زوجته في دعوة شيخة الزار وتكرار المأساة، وإلا صبغت حياته بنكد أسري لا حد له. (١٢٤)

وتتمثل الصورة الثالثة في الفواش والموبقات، إذ يشير أحد الرحالة إلى وجود موبقات بحجم طبيعي لا يُخرج المجتمع عن وقاره. (١٢٥) وقد تصدت الدولة السعودية لمثل هذه الجرائم، فأشارت الجريدة الرسمية في مكة إلى "وقوع حادثتين أو ثلاث - دون أن تحدد نوعها- من بعض أهل الفسق والفجور، مما لا يرضي الله، لذا دعا السلطان عبد العزيز أعضاء المجلس الأهلي وبعض الوجهاء ومشايخ الحارات وذاكرهم في اتخاذ الوسائل اللازمة للأخذ على يد السفهاء ... وأمر بنشر بيان عام بالترتيبات التي تقرر في شأن معاقبة من ينتهك حرمان الله في البلد المطهر وفق الشريعة الإسلامية، وما ليس فيه حد فرض فيه من التعزير ما يكفي لردع كل عاصٍ" (١٢٦)

والصورة الرابعة للمتسولين أو المتتبعين، الذين ينتشرون في مكة، وبخاصة في موسم الحج، وينتشرون في الحرم الشريف يستجدون الناس سواء من ذوي البشرة السوداء أو من دول وسط آسيا، حيث يفد المتسولون بوصفهم دراويش بملابس رثة، ويمرون على البيوت، يحمل الواحد منهم عصا بها قطع حديدية، تصدر أصواتاً تصاحب مدائح قصيرة مقرونة بطلب الإحسان. ومعظم هؤلاء لا يفكرون في العودة إلى بلادهم.^(١٢٧)

ويرى أحد الرحالة أن زيادة نسبة المتسولين في مكة ترجع إلى عدة عوامل منها الخلط بين التوكل والتواكل، وقد شجعت الدولة العثمانية عقلية التواكل وعملت على تعميقها لضمان بقائها، بإجراء الأرزاق على الأعراب الذين توطنوا مكة، وشجعت الميسورين على حبس الأوقاف لإجرائها عليهم. وساهمت أموال الأوقاف المصرية التي تذهب سنوياً لهؤلاء في تعميق الفكرة ذاتها. لكن تم الاتفاق مؤخراً بين الحكومتين المصرية والسعودية (١٩٣٦م) على صرف هذه الأرزاق في مسارها الصحيح مثل تعبيد الطرق وتعمير المنشآت الإسلامية. كما أدى النسيج المختلط للمجتمع المكي إلى عدم وجود الحماية الكافية لمنع التسول، حرصاً على مظهر بلد هم.^(١٢٨)

ويظهر المدخنون في الصورة الأخيرة، فقد عرف المكيون - شأنهم شأن باقي العالم العربي - التدخين منذ القرن الحادي عشر الهجري، ثم تطور وانتشر وتعددت أنواعه، وفشى في مكة استعمال الجراك.^(١٢٩) وانتشر تدخين التبغ الملفوف (السجائر) بشكل مخيف، بحجة أنه ليس فيه نص تحريم، غير أنه ثبت ضرره بشكل قاطع، فمنعته الحكومة وأعلنت حرمة، وتابعت لجنة الأمر بالمعروف تنفيذ الإعلان فلم يجرؤ أحد من أهل البلد أو الحجاج على التدخين جهراً.^(١٣٠)

خامساً: المؤسسات الاجتماعية والترفيهية

* المتنزهات والحمامات العامة

وعادة أهل مكة بعد انقضاء موسم الحج أن يعلنوا أفراحهم فيزوجون أولادهم، وبقيمون حفلاتهم ورحلاتهم في المنتزهات^(١٣١) ويستصحبون المغنيين وآلات الطرب، وأكثرهم يقترض النقود بفائدة كبيرة لينفق منها على تلك الرحلات على أمل أن يسدها في موسم الحج^(١٣٢) ومن عادتهم أيضاً إقامة الولائم في المنتزهات بضواحي مكة. وبعد فراغهم من الطعام يجلسون للسمر^(١٣٣) الذي يتضمن سماع بعض الأغاني على أنغام العود والربابة والقانون، كما تقام مسابقات رياضية في الجري ولعب الكرة والشطرنج ثم ينصرفون^(١٣٤) وإن بقيت الولائم في العهد السعودي فقد اختفت حفلات السمر لما تتضمنه من محظورات شرعية.

وفي مكة حمامان على الطراز الروماني الموجود في مصر، يتغذيان من مجرى ماء عين زبيده، أحدهما بالعمرة بناه محمد باشا وزير السلطان سليمان عام ٩٨٠هـ، وثانيهما بالقشاشية ويسمونه حمام النبي، ولا يعرف بانيه على وجه الدقة^(١٣٥).

* المقاهي ودور السمر

تكثر في شوارع مكة المقاهي البلدية، وتمتد حتى تخالط الحوانيت ومحلات الحلاقين في شارع المسعى نفسه، وترى فيها دككاً وكراسي خشبية مقاعدها من شبكة ليف أو خوص مجدول للجلوس، ويشربون فيها الشاي والقهوة (من البن اليمني) والسوبيا، وعصير الليمون، وكبرأؤهم يضيفون علي القهوة مكسبات الطعم واللون والرائحة، مثل القرنفل والعطريات ويسمونها دوش، ويتعاطون فيها النرجيلة بكثرة، ويمر بعض الهنود على المقاهي وهو ينادي (كابوس) أي رياضة التديك^(١٣٦) فإذا طلبه أحد فرشه على دكة وأخذ يكبسه نحو نصف ساعة نظير قرش أو قرشين^(١٣٧).

أما في العهد السعودي فقد اختفت النرجيلة، وغدا تدخين الشيشة والسجاير يتم بصورة خفية، نظراً لتحريمه من قبل الحكومة، أما المسكرات فلا تباع ولا

تشتري، ولا أثر لها في أسواق مكة أو الحجاز عامة إلا في دور القناصل في جدة، ويحاول البعض ممن لا أخلاق لهم تهريب المخدرات والاتجار فيها بشكل سري. (١٣٨)

وبالقرب من المقاهي كانت هناك دور سمر يقدم فيها بعض أناس - في الغالب من اليمنيين - أغاني تطرب نفوس الحاضرين، وكلها في مدح النبي صلى الله عليه وسلم وفي بعض الأحيان ترى بعض المغنيين متقلبين في طرق مكة. (١٣٩)

* التكايا

والتكية تعني دار الضيافة والبر والإحسان، وفي مكة ثلاث تكايا، أكبرها وأكثرها تنظيماً التكية المصرية بحي جباد، شيدها محمد علي، وفيها مخازن للغلل التي تأتي من مصر وطاحونة يتناوب على تشغيلها أربعة بغال، ومخبز ومطبخ ومكان لإدارتها. (١٤٠) كما توزع التكية مرتبات وهدايا وعطايا لعائلات حجازية بقصد البر والإحسان، وللبدو كفاً لأذاهم عن المحمل المصري، (١٤١) وغدت عادة استمر العمل بها. (١٤٢)

وقد توقف نشاط التكية زمن الحرب بين آل سعود والأشراف بسبب انقطاع المواصلات، ثم عاودت نشاطها الخيري الذي يستفيد منه ثلاثة آلاف من الفقراء، حيث توزع عليهم الخبز والحساء كل صباح. (١٤٣) وبعد أن استقر الأمر للملك عبد العزيز تماماً في الحجاز، قررت وزارة الأوقاف المصرية إرسال الغلال التي اعتادت إرسالها إلى التكية المصرية في مكة والمدينة، وقدرها ٢١٠٠٠٠ إردب من القمح، وطلبت التكية من الحكومة الحجازية كشوفاً بأسماء الفقراء الذين توزع عليهم هذه الحبوب، وعليه اختارت الحكومة لجنة من أهل الخبرة للنظر في الدفاتر المحررة زمن الأتراك ومقابلتها بالدفاتر التي وضعت في زمن الأشراف، لتحديد المستحق الحقيقي لهذه الصدقات. (١٤٤)

* المدارس

اقتصرت التعليم في مكة زمناً طويلاً على حلقات الدروس في المسجد الحرام، مقصوداً على العلوم الشرعية واللغوية، وسجل البنتوني أن في مكة عام ١٣٢٨هـ مدرستان هما المدرسة الصولتية بناها الشيخ رحمة الله الهندي^(١٤٥) وهي قائمة على تبرعات أهل الهند^(١٤٦) ومدرسة أنشأها الشيخ يوسف الخياط - من علماء مكة- واعترمت الحكومة التركية إنشاء مدرسة جديدة عام ١٣٢٨هـ^(١٤٧) ثم ظهرت مدارس أهلية، أهمها مدارس الفلاح التي أسسها تاجر اللؤلؤ محمد علي زينل عام ١٣٢٦هـ^(١٤٨) فكان لها دور ريادي في تخريج كوادر إدارية لدواوين الحكومة. وكادت هذه المدارس تغلق أبوابها إثر تعثر تجارة اللؤلؤ، لولا أن تداركها الملك عبد العزيز فتولى الإنفاق عليها.^(١٤٩)

وصور دولتشين الحياة الفكرية في العهد العثماني بأنها محصورة في تعليم أولي بسيط، متمثل في حلقة ضيقة من المدارس الدينية، وهذه المدارس معظم روادها من الأعراب المقيمين، ويشكل أهالي البلد استثناءً.^(١٥٠) وتشكل الريشة والحبر والورق الوسائل الأساسية للتعليم في مكة. وقد يضطر طالب العلم إلى إعانة نفسه بالعمل في حرفة أو تجارة، لعدم انتظام الإنفاق على التعليم في العهد الهاشمي.^(١٥١)

وسجل الأديب المصري محمد حسين هيكل أن أهل مكة في بداية العهد السعودي يقفون من تعلقهم بالحياة الحديثة عند نقد ما هم عليه في بلادهم، دون أن يتصوروا لوناً جديداً للحياة العلمية، يوائم مزاجهم ولا ينكره تفكيرهم.^(١٥٢) والواقع العلمي (التقني) في العالم العربي حتى يومنا هذا يقف عند حد نقد الذات، دون أن يتعداه إلى مرحلة الخيال والإبداع. أما الواقع الثقافي فقد انخرط المجتمع المكي في عقد المملكة، التي ارتضت لنفسها مظهراً إسلامياً. وأنشأت المدارس الحديثة وأرسلت البعثات.

الخاتمة

وهكذا شكلت كتابات الرحّالة معاً صورة واضحة المعالم للمجتمع المكي في النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري، أظهرت نسيج المجتمع، وألقت الضوء على أنشطته وعاداته وتقاليده وإيجابياته وسلبياته، كما أوضحت الفوارق بين العهود الثلاث؛ العثماني والشريفي والسعودي، حيث تقلصت سلبيات المجتمع بشكل كبير في العهد السعودي، بعد أن غدت السلوكيات مراقبة من قبل السلطة السياسية والدينية. ونعم الحجاج بالأمن والأمان في أداء المناسك والتنقل بين الشعائر.

واستطاعت مكة في الفترة ذاتها أن تستوعب عناصر متنوعة من مختلف بلدان العالم الإسلامي، وصهرتهم في بوتقتها، واستفادت من خبراتهم وأموالهم في النشاط التجاري والسكاني، وإن تأثرت سلبياً بعادات هذا الكم المتنوع من الأجناس وتقاليده، في ظل غياب الوعي الديني.

وأوضحت الدراسة أن سلبيات المجتمع المكي، ولا سيما الموالد والاحتفالات

والخرافات قد وجدت هوى في نفوس الناس، في العهدين العثماني والشريفي. ولا شك أن الميل الواضح لهذه السلوكيات يعكس انحرافاً في العقيدة، وجهاً بأصولها. ثم تبدلت هذه الصورة في العهد السعودي فاختلفت الاحتفالات بالموالد والذكريات السنوية، وتقلصت البدع والخرافات والأمراض الاجتماعية، وبدأت باكورة التعليم الحديث.

الحاشية

- (١) أثبت المترجم أن هرخرونيه أسلم وأخفى إسلامه عن الغرب، كريستيان هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة، ترجمة على عودة الشيخ، تعليق محمد السرياني ومعراج ميرزا، (دار الملك عبد العزيز، الرياض ١٤١٩) ج١، ص ٢٧ - ٣٥
- (٢) يغيث ريزقان، الحج قبل مئة سنة "الرحلة السرية للضابط الروسي عبد العزيز دولتشين إلى مكة المكرمة ١٨٩٨ - ١٨٩٩م (بيروت ١٩٩٣) الطبعة الثانية، ص ٧ - ٣١
- (٣) عن تفاصيل هذه الرحلة راجع: الأوضاع السياسية في وسط الجزيرة العربية عند نهاية القرن التاسع عشر الميلادي نص رحلة البارون إدوارد نولده مبعوث روسيا إلى نجد عام ١٨٩٣م / ١٣١٠هـ، تعريب عوض البادي (دار بلاد العرب للنشر، الرياض، ٢٠٠٢م / ١٤٢٢هـ)
- (٤) ريزقان، الرحلة السرية للضابط الروسي، ص ٣٢
- (٥) رتبة عسكرية تركية تعني قائد حرس الشرف (للخديوي)
- (٦) إبراهيم رفعت، مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية (دار المعرفة، بيروت، د.ت) ج١، ص ٣ - ٥، ج٢، ص ٣٦٥
- (٧) أطلق معارضو الدعوة السلفية عليها لفظه الوهابية نسبة إلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب، بما يسهل عليهم الكيد لها بعد تجريدها من التبعية لله ولرسوله وربطها بشخص
- (٨) محمد لبيب البنتوني، الرحلة الحجازية لولي النعم عباس حلمي الثاني خديو مصر (مطبعة الجمالية، القاهرة، ١٣٢٩هـ) ط٢، ص ٣٨ ص ١ - ٥
- (٩) مصطفى محمد الراعي، في المملكة الروحية للعالم الإسلامي، رحلة إلى الأراضي المقدسة عام ١٣٤٩هـ / ١٩٣١م (مطبعة المدينة المنورة، ١٩٣٥)

- (١٠) ياباني عاش في إندونيسيا فترة واعتنق الإسلام، وأدى فريضة الحج ثلاث مرات في سنوات ١٣٥٣ و ١٣٥٥ و ١٣٥٦ هـ، ثم دون كتابه عن تجربة الحج في عام ١٣٦١ هـ، راجع: تاكاهيشي سوزوكي، **ياباني في مكة**، ترجمة وتعليق سمير إبراهيم وسارة تاكاهيشي (دارة الملك عبد العزيز، الرياض: ١٩٩٩م) ص ص ٢٢ - ٢٨
- (١١) أديب مصري، ساهم في الحياة السياسية المصرية من خلال الحياة النيابية، زار مكة لأداء فريضة الحج عام ١٣٥٥ هـ، وانفعل بكل ما رآه انفعال الأديب الحاذق، فكتب أخبار هذه الرحلة راجع: محمد حسين هيكل، **في منزل الوحي** (دار الكتب المصرية، ١٣٥٦ هـ)
- (١٢) من أعضاء هيئة التدريس بالأزهر، سافر لأداء فريضة الحج عام ١٣٥٤ هـ، فحمل معه كاميرا وسجل أحداث الرحلة كاملة بأسلوب دقيق ممتع. والكتاب يعد رؤية أزهرية للأوضاع في مكة في ظل الحكم السعودي. عباس متولي حمادة، **مشاهداتي في الحجاز** (القاهرة، ١٣٥٥ هـ) ص ص ٥ - ٨
- (١٣) طبيب شامي متقف، أنشأ مجلة الحكمة في بيروت، وفي عام ١٩٣٦م رافق بعثة الحج الشامي بوصفه طبيباً. كانت هذه هي الرحلة الثانية لشهبندر، بينما كانت رحلته الأولى إلى مكة في عهد الشريف حسين؛ ومن ثم تكتسب كتاباته في هذه الرحلة بعداً آخر هو إيضاح الفوارق بين الأوضاع في مكة في العهدين الحسيني والسعودي، عبد الغني شهبندر، **رحلة الحجاز** (بيروت، ١٩٣٧م) ص ص ١ - ١٦
- (١٤) صحفي مصري يعمل محرراً بجريدة المقطم، وهو ابن شقيق محمد رشيد رضا صاحب المنار، قام برحلة لأداء فريضة الحج عام ١٣٥٣ هـ، التقى خلالها بالملك عبد العزيز آل سعود، وسجل أخبار رحلته بأسلوب صحفي في كتاب بعنوان: **محي الدين رضا، رحلتي إلى الحجاز عام ١٩٣٥م** (مطبعة المنار، القاهرة: ١٩٣٦)
- (١٥) متقف لبناني جاء إلى مكة لأداء فريضة الحج، رافقه والده، الذي سبق له أن عاش في مكة فترة في ظل الحكم العثماني، لذا استمد غريب كثير من أخبار مكة عن والده، فجاءت غير معبرة عن الفترة التي زار فيها مكة. غريب عجيب الهاشمي، **سياحتي إلى الحجاز، حوادث واقعية** (بيروت: ١٩١٥)، المقدمة
- (١٦) الببتوني، الرحلة الحجازية، ص ٣٨
- (١٧) حمادة، مشاهداتي في الحجاز، ص ٤٥
- (١٨) هيكل، في منزل الوحي، ص ١٢٥
- (١٩) يغم ريزفان، الرحلة السرية للضابط الروسي، ص ص ١٤٥، ١٥٦، ١٥٧
- (٢٠) الزراعي، في المملكة الروحية، ص ٤٥
- (٢١) حمادة، مشاهداتي في الحجاز، ص ص ٤٥، ٤٦
- (٢٢) ريزفان، الرحلة السرية للضابط الروسي، ص ص ١٤٤، ١٥٧

- (٢٣) الناموسية: قماش خفيف يظل السرير، ويحمي النائم من التاموس، الأمير شكيب أرسلان، الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف، منشور في المختار من الرحلات الحجازية، اختيار وتهذيب محمد حسن عقيل (دار الأندلس، جدة: ١٤٢١هـ) ج٣، ص ١٠٢٧
- (٢٤) ريزفان، الرحلة السرية للضابط الروسي، ص ١٥٩
- (٢٥) الببتوني، الرحلة الحجازية، ص ص ٣٧ - ٣٩
- (٢٦) شارل ديبويه، رحلة إلى الحجاز في النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي (١٨٥٤) ترجمة وتعليق محمد خير البقاعي (دار الفيصل الثقافية ١٤٢٢هـ) ص ٢٢٠
- (٢٧) ريزفان، الرحلة السرية للضابط الروسي، ص ١٤٥
- (٢٨) إبراهيم رفعت، مرآة الحرمين، ص ٢٠٣
- (٢٩) الببتوني، الرحلة الحجازية، ص ص ٣٨، ٤٩
- (٣٠) صحيفة أم القرى، عدد ٣، ٢٩ جماد أول ١٣٤٣هـ، ص ٢
- (٣١) يصرف له مرتب من مصر قدره ٣٦٦ إردب قمح عيناً أو نقداً بموجب أمر همايوني لخديوي مصر راجع إبراهيم رفعت، مرآة الحرمين، ج٢، ص ١٩٥
- (٣٢) أحمد السباعي، تاريخ مكة دراسة في السياسة والعلم والاجتماع والعمران (دائرة الملك عبد العزيز، الرياض ١٤١٩) ط٢، ج٢، ص ٦٦٦
- (٣٣) هرخرونيه، صفحات من تاريخ مكة، ج٢، ص ص ٤٩٢ - ٤٩٤
- (٣٤) الببتوني، الرحلة الحجازية، ص ٦٠
- (٣٥) هرخرونيه، صفحات من تاريخ مكة، ج٢، ص ص ٤٩٢ - ٤٩٦
- (٣٦) محمد علي مغربي، أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة (جدة، ١٤٠١هـ) ص ص ٦٣ - ٧٤
- (٣٧) حسن عبد الحي قزاز، أهل الحجاز بعقبهم التاريخي (جدة: ١٤١٥هـ) ، ص ص ٢٥٨، ٢٥٩
- (٣٨) أحمد السباعي، مرجع سابق، ج٢، ص ص ٦٣٩، ٦٤٠
- (٣٩) النسبة هنا حصل عليها الببتوني من رجال الإدارة في مكة، وهي تقريبية إذ لم يتم تعداد حقيقي في البلدة
- (٤٠) من أشهر العائلات في مكة على سبيل المثال:
- من الهنود: بيت خوقير، والدهلوي، والساب، وحكيم، والناقورة، والمفتي عبد الشكور، والميرزا كمال، وجان، وشلهوب، ونور، والطيب، وسنبل، وخوجة بكر، والمسكي، والنياس، والزرعة، والقرع، والحجمي.
- من الماليزيين (جاوه): بيت البتاوي، ومنكابو، والزيني، وأرشد، والننتيانا، والفلمباب، وقديسي، وودوم.

من الحضارم: بيت بالحارس، وباجنيد، وبانجا، وباحكيم، وباذرعة، وباعيسى، وباعشن.
من الشوام: بيت هاشم، والجبري، والخشيقاتي. و من الترك: بيت الدرايزنلي، والقرمنلي
من المصريين: بيت القطان، والزقزوق، والرشيدي، والرواس، والقزاز. و من البخاريين: بيت كشك، والفاشنتلي،
والإنديجان. راجع البتوني، الرحلة الحجازية، ص ص ٤٠، ٤١.

(٤١) ريزقان، الرحلة السرية للضابط الروسي، ص ١٤٥

(٤٢) المصدر نفسه، ص ص ١٤٧، ١٤٨

(٤٣) البتوني، الرحلة الحجازية، ص ٤٢

(٤٤) يختار المطوف صبيانه من البلدان التي يقوم على خدمة حجاجها، ويسجلهم لدى الحكومة، ويحصلون على
أجرهم من المطوف والحجاج، إضافة إلى الهبات والهدايا. راجع: سوزوكي، ياباني في مكة، ص ١٠١

(٤٥) هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة، ج٢، ص ص ٣٣٥ - ٣٣٩

(٤٦) المصدر نفسه، ص ٣٤١

(٤٧) محي الدين رضا، رحلتي إلى الحجاز، ص ٣٣

(٤٨) إبراهيم رفعت، مرآة الحرمين، ج٢، ص ١١٩

(٤٩) أموال يجمعها المطوف لأداء فريضة الحج نيابة عمن لا يستطيع أداء الفريضة.

(٥٠) البتوني، الرحلة الحجازية، ص ص ٦٠، ٦٢

(٥١) هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة، ص ص ٣١٢، ٣١٣

(٥٢) هيكل، في منزل الوحي، ص ١٣٥

(٥٣) محمد صادق باشا، رحلة كوكب الحج، في المختار من الرحلات الحجازية، ص ٦٤٦

(٥٤) سوزوكي، ياباني في مكة، ص ١٣٩

(٥٥) حمادة، مشاهداتي في الحجاز، ص ٤٩

(٥٦) أم القرى، عدد ٩، ١١ رجب ١٣٤٣هـ، ص ٣

(٥٧) حمادة، مشاهداتي في الحجاز، ص ٤٨

(٥٨) حسن قزاز، مرجع سابق، ص ٨٠

(٥٩) ريزقان، الرحلة السرية، ص ١٤٧

- (٦٠) الببتوني، الرحلة الحجازية، ص ٦٠
- (٦١) الراعي، في المملكة الروحية، ص ٩٥
- (٦٢) ومن هذه الحرف صناعة السبح من اليسر المستخرج من البحر الأحمر، ومن مختلف أنواع الخشب المحلي والمستورد، ومن العود ونوى البلح. وفي جبال مكة صناعة تفتيت وتهذيب أحجار البناء. والحرف الخدمية مثل الخياطة، والحرف المتعلقة بالمأكل ويقوم بها الجزارون والطحانون والخبازون والسقاعون وصناع القرب والحلوانية، وكل طائفة شيخ يحكم بين أبناء طائفته راجع: حسن قزاز، مرجع سابق، ص ص ٦٨ - ٧٧
- (٦٣) هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة، ص ٢٥٢
- (٦٤) محمد طلعت حرب، بعض ما رأيناه في الحجاز، في المختار من الرحلات الحجازية، ص ص ١٣٠٥ - ١٣٠٧
- (٦٥) إلهام ذهني، مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن التاسع عشر (سلسلة مصر النهضة، عدد ٥١، ١٩٩٥) ص ٢٧٣
- (٦٦) حمادة، مشاهداتي في الحجاز، ص ٤٩
- (٦٧) الليرة التركية: عملة ذهبية كانت قيمتها تعادل ١١٠ قروش، والمائة قرش تساوي جنيهاً من الذهب
- (٦٨) ريزفان، الرحلة السرية للضابط الروسي، ص ص ١٥٢، ١٥٣
- (٦٩) آلة وترية لها ستة خيوط وعليها ريش، راجع: هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة، ص ٣٢١
- (٧٠) المصدر نفسه، ص ص ٣٢٠، ٣٢١
- (٧١) ريزفان، الرحلة السرية للضابط الروسي، ص ١٥٣
- (٧٢) هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة، ج٢، ص ص ٣٢٤، ٣٢٥
- (٧٣) سوزوكي، ياباني في مكة، ص ص ٢٧٥، ٢٧٦
- (٧٤) هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة، ج٢، ص ص ٣٣٠، ٣٢٥
- (٧٥) المصدر نفسه، ص ٣٣١
- (٧٦) صلاح الدين المنجد، فيصل بن عبد العزيز من خلال أقواله وأفعاله (بيروت، ١٩٧٢م) ص ٥٠
- (٧٧) النرجيلة ثلاثة أنواع: أولها وأفخمها الكدر من الفضة المرصعة، مملوءة بالماء ومجهزة بأنبوب طويل (الليّ) ويدخلها الخاصة بتبغ شيرازي. وثانيها الشيشة وهي أصغر حجماً. وثالثها البوري وهو جوزة هند مجوفة ومثبت بها بوصة محل الليّ، ويستخدمها العامة بإسراف ويدخنون فيها التبناك القادم من البصرة وبغداد، وهو أقل جودة من التبغ الشيرازي. راجع: شارل ديديه، رحلة إلى الحجاز، ص ص ٢١٢، ٢١٣
- (٧٨) الببتوني، الرحلة الحجازية، ص ٥٠ و سوزوكي، ياباني في مكة، ص ١٥١

- (٧٩) هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة، ج٢، ص ص ٤١١، ٤١٣
- (٨٠) ريزفان، الرحلة السرية للضابط الروسي، ص ٤٦
- (٨١) هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة، ج٢، ص ص ٤٠٧ - ٤٠٩
- (٨٢) سوزوكي، ياباني في مكة، ص ١٧٠
- (٨٣) هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة، ج٢، ص ٤٤٥
- (٨٤) سوزوكي، ياباني في مكة، ص ص ١٦٧، ١٦٨
- (٨٥) محمد عمر رفيع، مكة في القرن الرابع عشر الهجري (منشورات نادي مكة الثقافي ١٤٠١هـ) ص ٨٧
- (٨٦) لا يختلف الوصف عما كتبه مؤرخو الحياة الاجتماعية في الحجاز : راجع: حسن قزاز، أهل الحجاز، ص ص ٣٧ - ٤١، و محمد عمر رفيع، مرجع سابق، ص ص ٨١ - ٨٧
- (٨٧) كلمة تركية بمعنى حجاب المرأة وهو غطاء للرأس والوجه أسود رقيق
- (٨٨) هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة ، ج٢، ص ص ٤٤٦، ٤٤٧
- (٨٩) محمد عمر رفيع، مرجع سابق، ص ٨٧
- (٩٠) سوزوكي، ياباني في مكة، ص ١٦٨
- (٩١) المصدر نفسه، ص ص ٤٣٢، ٤٣٣
- (٩٢) الببتوني، الرحلة الحجازية، ص ص ٤٢، ٤٩
- (٩٣) هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة، ج٢، ص ٣٤٩
- (٩٤) الميثان: معطف قصير (جاكيت) السباعي، تاريخ مكة، ص ٦٤٥
- (٩٥) الراعي، في المملكة الروحية، ص ٤٨
- (٩٦) إبراهيم فوزان الفوزان، إقليم الحجاز وعوامل نهضته الحديثة (الرياض: ١٤٠١) ص ٣٤٤
- (٩٧) محمد صادق، كوكب الحج، منشور في المختار من الرحلات الحجازية، ص ٦٤٨
- (٩٨) محمد رشيد رضا، رحلة، رحلة الحج، منشور في المختار من الرحلات الحجازية، ص ٨٨٣
- (٩٩) ريزفان، الرحلة السرية للضابط الروسي، ص ١٤٦
- (١٠٠) الببتوني، الرحلة الحجازية، ص ٤٩
- (١٠١) الراعي، في المملكة الروحية، ص ٦٧، و ريزفان، الرحلة السرية للضابط الروسي، ص ١٤٦
- (١٠٢) الببتوني، الرحلة الحجازية، ص ص ٤٩، ٥٠

- (١٠٣) هيكل، في منزل الوحي، ص ١٢٩
- (١٠٤) المصدر نفسه، ص ٥١
- (١٠٥) هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة، ج٢، ص ص ٣٦٣ - ٣٦٦
- (١٠٦) تذكر بعض المراجع أنه كان يتم أحيانا الاستعانة بقارئ محترف للقرآن في ذكرى العشرين والأربعين والسنوية. راجع على سبيل المثال: محمد علي مغربي، أعلام الحجاز، ص ص ١٣، ١٤
- (١٠٧) أم القرى، عدد ٣٧، ٢٢ صفر ١٣٤٤، ص ١
- (١٠٨) المصدر نفسه، عدد ٣٦، ١٥ صفر ١٣٤٤
- (١٠٩) هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة، ج٢، ص ص ٣٩٢ - ٣٩٥
- (١١٠) المصدر نفسه، ص ص ٣٦٢ - ٣٦٥
- (١١١) الببتوني، الرحلة الحجازية، ص ٥١
- (١١٢) صاحب ضريح خارج مكة، على أول طريق جدة، لا يعرف أحد أصله على وجه الدقة. وهو معروف في جزر الهند الشرقية (إندونيسيا) هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة، ج٢، ص ٣٦٥
- (١١٣) المصدر نفسه، ص ص ٣٦٥ - ٣٦٧
- (١١٤) قبره عند المدخل الغربي لوادي منى، والشائع بين الناس أسطورة تقول إنه في إحدى السنوات في أعقاب أيام التشريق توقف الركب الخارج من منى ولم يستطع التحرك، وعندما بحثوا عن السبب وجدوا جثة الشيخ المهدي، فغسلوها وكفنوها وصلوا عليها ودفنوها، وأمرت السلطات في مكة ببناء قبة فوق الضريح وإقامة احتفال سنوي له، وربما انتقل الاحتفال إلى ١٧ جماد الآخر ليوافق احتفال النساء بذكرى الأدهم. المصدر نفسه، ص ٣٦٧
- (١١٥) أم القرى، عدد ١٤، ١٧ شعبان ١٣٤٣، ص ١
- (١١٦) ريزفان، الرحلة السرية للضابط الروسي، ص ص ١٢٢ - ١٢٤
- (١١٧) الببتوني، الرحلة الحجازية، ص ٥٢
- (١١٨) إبراهيم عبد القادر المازني، رحلة الحجاز، منشور في المختار من الرحلات الحجازية، ص ص ١٠٥٨، ١٠٥٩
- (١١٩) سورة البقرة، آية ١٧٩
- (١٢٠) حمادة، مشاهداتي في الحجاز، ص ص ٥٣ - ٥٦
- (١٢١) هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة، ج٢، ص ص ٤١٧ - ٤٢٣

- (١٢٢) المصدر نفسه، ص ٤١٤
- (١٢٣) ويذكر مؤرخ سعودي أن النساء كن يلبسن في هذه الحفلات ملابس الرجال، واستمر الزار في العهد السعودي يمارس خفية. راجع: محمد علي مغربي، أعلام الحجاز، ص ١٣
- (١٢٤) هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة، ج٢، ص ٤٢٥
- (١٢٥) المصدر نفسه، ص ص ٤٠٦ - ٤٠٩
- (١٢٦) أم القرى، عدد ٣٧، ٢٢ صفر ١٣٤٤، ص ٣
- (١٢٧) هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة، ج٢، ص ٣١٢
- (١٢٨) هيكل، في منزل الوحي، ص ص ١٣٨ - ١٤٠
- (١٢٩) الجراك: عبارة عن خليط من التمايك وبهارات مخصصة وفواكه مثل النبق والتفاح والمانجو، ويدق ويخلط بالقطر (عسل قصب السكر) ويبقى مدة حتى يتخمر، وكلما طالته مدة تخمره زادت جودته. راجع: محمد عمر رفيع، مرجع سابق، ص ص ٧٨، ٧٩
- (١٣٠) جاكين بيرين، اكتشاف جزيرة العرب "خمسة قرون من المغامرة والعلم" ترجمة قدرى قلجبي، تقديم الشيخ حمد الجاسر، (بغداد، ١٩٩٥)، ص ٢٠٣
- (١٣١) انصرف بعض الناس من المسرين في مكة في مطلع القرن الرابع عشر الهجري إلى حياة اللهو والترف فبنوا المنتزهات في ضواحي مكة، السباعي، تاريخ مكة، ص ص ٦٤٦، ٦٤٧
- (١٣٢) إبراهيم رفعت، مرآة الحرمين، ج١، ص ٦٣
- (١٣٣) وأشهر ألعاب الكبار المزمار، وتتم في الخلاء بطل وغناء ورقص ثنائي بالعصا، وهناك الصهبة وهي من الموشحات، إضافة إلى الكوتشينا والدومينو. أما ألعاب الصغار فمنها الاستغمايه والبرير والكبت والمدارية (المرجيحة) والمدوان. عن تفاصيل هذه الألعاب راجع: حسن قزاز، أهل الحجاز، ص ص ٩٠ - ١٠٠
- (١٣٤) الببتوني، الرحلة الحجازية، ص ٤٩
- (١٣٥) المصدر السابق، ص ٥٨
- (١٣٦) ويجانب الهنود تجيد النساء هذا الفن لإرضاء الأزواج الذين اعتادوا عليه قبل النوم، وتقوم الخادمة بتدليك سيدتها، وتتبادل الخادمة التدليك مع البنات الصغار بالتناوب. راجع: هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة، ج ٢ ص ٤٢٨
- (١٣٧) الببتوني، الرحلة الحجازية، ص ٥٧
- (١٣٨) شهبندر، رحلة الحجاز، ص ص ١٧، ١٨

- (١٣٩) البتوني، الرحلة الحجازية، ص ٥٨
- (١٤٠) المصدر نفسه، ص ٥٨
- (١٤١) عن ميزانية التكية المصرية ومرتبات الأشراف والفقراء والعريان من الصرة وأوقاف الحرمين في مصر
راجع: إبراهيم رفعت، مرآة الحرمين، ج٢، ص ص ٣١٢ - ٣٦١
- (١٤٢) الراعي، في المملكة الروحية، ص ٩٨
- (١٤٣) أم القرى، عدد ٣٢، ١٦ محرم ١٣٤٤، ص ١
- (١٤٤) المصدر نفسه، عدد ٦١، ١٣ شعبان ١٣٤٤، ص ٣
- (١٤٥) هو الشيخ رحمة الله بن خليل الرحمن الهاشمي ولد بكيرانه بالقرب من دهلي بالهند، فكان من علماء الإسلام الذين تصدوا للمحاولات التبشيرية في الهند، فألف كتاب إظهار الحق ورحل إلى مكة فوهب نفسه لخدمة العلم وخدمة الحجاج الهنود، وأسس مدرسته في سوق الليل راجع: محمد السنوسي، الرحلة الحجازية، تحقيق علي الشنوفي (تونس ١٣٩٨هـ) ص ص ١٠٥ - ١١٥
- (١٤٦) كانت الهند آنذاك هي شبه القارة الهندية التي تضم باكستان والهند وبنجلادش وكشمير
- (١٤٧) البتوني، الرحلة الحجازية، ص ص ٥٩، ٦٠
- (١٤٨) هيكل، في منزل الوحي، ص ١٢٢
- (١٤٩) طلعت حرب، بعض ما رأيناه في الحجاز، في المختار من الرحلات الحجازية، ص ١٣٠٧
- (١٥٠) ريزفان، الرحلة السرية، ص ١٤٦
- (١٥١) هرزرونيه، صفحات من تاريخ مكة، ج٢، ص ٤٨٥
- (١٥٢) هيكل، في منزل الوحي، ص ١٣١